القصائد القصصية وتنمية القيم التربوية في ديوان (آداب العرب) للأطفال، للشاعر المصري إبراهيم العرب

أ. عماد الشافعي

كاتب الأطفال

عضو اتحاد كتاب مصر (شعبة أدب الأطفال)

مقدمة

يشير كثير من الكتاب إلى أن أول من كتب قصيدة خاصة بالطفل هو رائد النهضة العربية رفاعة الطهطاوي، ولكن ما فعله لم يزد عن نظم عدة قصائد وأناشيد، أما التاريخ الشعري الفعلي للكتابة للأطفال في الوطن العربي يبدأ من محمد عثمان جلال (١٨٢٩ – ١٨٩٨م) الذي ترجم (العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ) الذي طُبع فيما بين (١٨٤٨– ١٨٥٤)، ثم طُبع بعد وفاة مؤلفه بعشر سنين (أي ١٩٠٨م). وكانت نظارة المعارف العمومية في مصر قد قررته على مدارسها الابتدائية ١٨٩٤.

وهو ديوان شعر يمتاز بلغة وأفكار وصياغة مدهشة، وهو لم يقتصر فيه على صياغة كتاب الأديب الفرنسي (لافونتين) Lafontaine شعرًا، بل تعداه إلى صياغة قصص من التراث الشعبي العربي– والمصري بخاصة – شعرًا، نقتبس منه:

بَسَمَ الزمانُ وعن كتابي أسفرا
وبه النسيمُ على محبته سَرى
فيه النكاتُ مع النوادر أينعَتْ
وظلامُ ليلِ الجهلِ منه أقمرا

ثم ظهر كتاب شعري آخر لتلاميذ المدارس لعبد الله فريج، عنوانه: (نظم الجمان)، وفيه يصوغ الحكايات المعروفة شعرًا، كحكاية الأرنب والسلحفاة المعروفة:

لقد حكوا عن أحد السلاحفِ
حكايةً من الزمان السالفِ
بأنها مع سيرها المقاربِ
تسابقتْ مع أحد الأرانبِ ... إلخ!

ثم جاء أحمد شوقي (١٨٦٨ – ١٩٣٢م) لينظم مقطوعات شعرية للأطفال في بعض من كتبه، ودعا الشعراء العرب لكتابة شعر للأطفال، قائلًا: "جربت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب لافونتين الشهير. وفي هذه المجموعة شيء من ذلك، فكنتُ إذا فرغت من وضع (أسطورتين) أو ثلاث أجتمع بأحداث المصريين، وأقرأ عليهم شيئًا منها فيفهمونه لأول وهلة، ويأنسون إليه، ويضحكون من الكثرة.

وقال أيضًا: "وأتمنى لو وفقني الله لأجعل للأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المستحدثة منظومات قريبة المتناول، يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم"، وقد استخدم قصص الحيوانات

لما فيها من التشويق والمتعة، مع الحكمة والفائدة وحرص أيضًا على تنمية إحساسهم بجمال الكلمة وقوة تأثيرها.

ولكن الخطوة الكبيرة في مسيرة أدب الأطفال في هذا العصر بدأت في العقد الثالث من هذا العصر، عندما ظهر اثنان من الرواد الأوائل لهذا الأدب وهما: محمد الهراوي (١٨٨٥- ١٩٣٩م)، وكامل كيلاني (١٨٩٧ -١٩٥٩م).

وأول ما كتبه (الهراوي) للأطفال منظومات قصصية رائعة بعنوان: (سمير الأطفال للبنين)، عام ١٩٢٢م، ثم (سمير الأطفال للبنات)، ١٩٢٤م. يقول في إحدى صوره الشعرية عن التلميذ:

أنا في الصبح تلميذٌ وبعد الظهر نجار
فلي قلم وقرطاس وازميل ومنشار
وعلمي إن يكن شرفًا فما في صنعتي عار
فللعلماء مرتبة وللصناع مقدار

غير أن كتابات كثيرة في تاريخ أدب الطفل العربي غفلت الإشارة إلى الشاعر المصري (إبراهيم مصطفى العرب)، المعروف بإبراهيم العرب، وديوانه للأطفال (آداب العرب) والذي طبع عام ١٩١١م، وقررته نظارة المعارف على طلاب المدارس، وأعادت طباعته عام ١٩٨٩م الهيئة المصرية العامة للكتاب بدراسة وتقديم من الكاتب عبد التواب يوسف، وهو الذي – أي إبراهيم العرب – تأثر بمحاولة محمد عثمان جلال، الذي ترجم أعمال (لافونتين) الأخلاقية الوعظية، فنظم مائة حكاية في صورة قصائد قصصية كل منها تنتهي بنصيحة

تكشف عن مغزى أو قيمة أو حكمة، وهذه الحكايات كانت موجهة – آنئذ – إلى الناشيءة في أبيات شعرية، وهو ما نتناوله في هذه الدراسة.

مشكلة البحث

دراسة العلاقة بين القصائد القصصية والقيم التربوية في ديوان (آداب العرب) للأطفال، للشاعر المصري إبراهيم العرب.

الهدف من البحث

تسليط الضوء على مجموعة من القيم التربوية من خلال القصائد القصصية الموجهة للأطفال في ديوان (آداب العرب) للشاعر إبراهيم العرب، والتساؤل: لماذا تم إغفال ذكره أو حتى الإشارة إليه وإلى محاولاته صياغة الحكايات القصصية للأطفال بأبيات شعرية؟.

كلمات مفتاحية:

شعر الأطفال، والقصائد القصصية، وأدب الأطفال، والقيم التربوية.

حياة الشاعر

ولد الشاعر إبراهيم مصطفى العرب في مدينة الإسكندرية، وبها توفي، وعاش بين القاهرة والإسكندرية. التحق بالأزهر الشريف، ودرس على يد أساتذة أجلاء، منهم رفاعة رافع الطهطاوي. بعدها عمل مدرسًا بمدارس القاهرة، ثم استقر بالإسكندرية مدرسًا للغة العربية. وشارك وهو شاب يافع في الدفاع عن الإسكندرية ضد الغزو البريطاني (١٨٨٢م) كما كان له دور وطني مشهود في

ثورة (١٩١٩م). نقتبس من قصائده القصصية التي تحمل في طياتها قيمًا تربوية إيجابية ما يلى:

في القصيدة القصصية (الفلاحان والسحاب):

إن الذي في ضمير الغيب مستتر .. فلا يفيدك فيه كثرة القالِ

دع المقادير تجرى في أعنتها .. ولا تبيتن إلا خالى البالِ

ما بين طرفة عين وانتباهتها .. يغير الله من حال إلى حالِ! (ص٤٣)

وهى أبيات ذائعة الصيت يرددها الناس كثيرًا في مواقف مختلفة لروعتها وحكمتها، دون معرفة قائلها، وهى في الحقيقة للشاعر إبراهيم العرب، وكانت موجهة – آنئذٍ – للناشيءة!!

وفي القصيدة القصصية (الطاووس):

لو نظر الناس إلى عيبهم .. ما عاب إنسان على الناس (ص١٤-١٥)

والمعنى أن يهتم المرء بإصلاح عيوبه عن الخوض في عيوب الناس!

وفي القصيدة القصصية (الأعمى والمقعد):

عاون صديقك في أمر يحاوله .. فالحر للحر معوان على الزمن (ص٢٠-٢١)

وفيها أن ثمرة التعاون بين الضعفاء تجعل كلًا منهما يكمل نقص الآخر، ويحقق مبتغاه.

وفي القصيدة القصصية (الفتاه والنحلة):

فانظر إلى حلاوة اللسان .. والسحر في المنطق والبيان

فرب لفظة أفادت نعمة .. ورب لفظة أتت بنقمة (ص٢٩)

وفي القصيدة القصصية (البومة والحمامة):

خذي لك صاحبًا من بيت مجد .. فليس يخونك الأصل العريق

وغضي الطرف إن لاحت عيوب .. من الرفقاء أو هضمت حقوق

ومن يبغ الصديق بغير عيب .. سيبقى الدهر ليس له صديق! (ص٩٨)

والحكمة من ذلك أنه على المرء أن يختار الأصحاب والأصدقاء الذين يشاركونه الفرحة والضيق، ولكن لا يتوقع أن يكون هناك أحد بلا عيب!

وفي قصيدته القصصية (الدرويش والقبرة والصقر):

لن يرزق المرء عونًا في مطالبه .. إلا إذا ما اغتدى والسعى معوان

دع التكاسل في الخيرات تطلبها .. فليس يسعد بالخيرات إنسان (ص٥٠)

وهو يرمى إلى حتمية الاجتهاد والكد والعمل، وعدم التواكل والكسل في تحقيق الغايات.

وفي قصيدته القصصية "الجرذ والمبرد":

وهكذا من يعانى غير مختبر .. مالا يطيق عراه الضر والفشل

كناطحِ صخرةٍ يوما ليوهنها .. فلم يضرها وأوهى قرنه الوعِل! (ص ١٣٤)

وهى أبيات ذائعة الصيت نرددها كثيرًا دون معرفة صاحبها، والمراد أن من ينطح الصخر لا يعود عليه ذلك إلا بتحطيم قرنيه، أي الخسران.

وفي قصيدته القصصية (الشجرة القديمة والبستاني):

لا ينتهى للمرء في الدنيا طلب .. وليس يمشى المرء في غير أرب!

وفي قصيدته القصصية (الرجل التائه في الصحراء):

أينفع المال والإنسان في ظمأ .. أمامه الموت لا قبر ولا كفن

ما كل ما يتمنى المرء يدركه .. تأتى الرياح بما لا تشتهي السفن!

وتحكى عن أحدهم ضل طريقه في الصحراء أثناء السفر، فجاع وعطش حتى كادت تزهق روحه. وأثناء ذلك عثر على كنز فلم يهتم به، وما كان يريد مالًا وذهبًا، بل كل ما كان يرغب فيه شربة ماء ولقمة خبز... تأتى الرياح بما لا تشتهي السفن.

وفي قصيدته القصصية (الجواد والمهر):

والمرء طبعًا زاهد فيما ملك .. ولو جرى بأمره حكم الفلك

ومن قديم قالت الأسلاف .. من يملك الشيء له يعاف

والمقصود أن المرء يزهد غالبًا فيما لديه، ولا يعرف قدره وقيمته .

وفي قصيدته القصصية (الحارث وزوجته والجحش) المأخوذة عن حكاية حمار جحا الشهيرة:

إنى فعلت ما في وسعي .. لأرضي الناس فخاب ظني

مهما يك الإنسان رب حق .. فغير مرض لجميع الخلق

وتعني أنه من المستحيل إرضاء كل الناس.

وفي قصيدته القصصية (الخادم ومولاه):

حقيقة كم من عدو عاقل .. في الناس خير من صديق جاهل

وهي حكاية شبيهة بحكاية الدب الذي أراد أن يبعد ذبابة عن صاحبه، فقذفها بحجر وهي على وجهه.

وفي قصيدته القصصية (الأرنب وطير الشرشور):

إن أخاك الصدق من يسعى معك .. ومن يضر نفسه لينفعك

وفيها أن الصديق الحق يكون وقت الشدائد مع صاحبه كما في وقت الرخاء.

وفي قصيدته القصصية (المغتر بالناس):

لئن كان من قال السلام عليكمُ .. يعد صديقًا، فالصديق كثير!

وفيها يبين أن الناس ليسوا كلهم أصدقاء، وليس كل من يحسن اللقاء صدوقًا.

وفي قصيدته القصصية (الحمل والذئب والليث):

حملٌ أبصر ذئبًا في الفلا .. ورأي الشر بدا من مقله

فاعترته رجفة من خوفه .. وتمشَى حائرًا في خبله

فاحتمى بالليث كي يحفظه .. ورأى في الليث أقصى أمله

فأتاه الحتف من مأمله .. وانقضى ما يرتجى من أجله

رب من ترجو به دفع الأذى .. عنك يأتيك الأذى من قبله!

وهكذا.. مائة قصيدة قصصية كتبها الشاعر إبراهيم العرب في ديوانه (آداب العرب) موجهة للناشيءة؛ لغرس قيم تربوية، ولإعطاء الأطفال دروسًا وعبرًا من الحياة على لسان الطير والحيوان وبعض البشر.

ويخلص البحث إلى ريادة الشاعر إبراهيم مصطفى العرب، المعروف بـ إبراهيم العرب في الكتابة الموجهة للناشيءة مع جيل الرواد، ومنهم: أمير الشعراء أحمد شوقى، ومحمد الهراوي، وكامل كيلاني، والتي كانت تسير على نهج الحكايات التي كتبها الشاعر الفرنسي (لافونتين) الشهير.

كما أن إبراهيم العرب الذي نظم القصائد القصصية المائة في ديوانه اختتم كل واحدة منها بعبرة أو عظة أو فائدة أو حكمة في أبيات شعرية محكمة، وهى وإن كانت مباشرة ولم تخل من قلق في المغزى وغموض في بعض الألفاظ، إلا أنها كتبت بلغة بسيطة وبإيقاع شعري واضح تستسيغه أذن الطفل، وتطرب له نفس القارئ.

شعر الأطفال، والقيم التربوية

الطّفل في الواقع لصيق بالشّعر، وله اتّصال عفوي به، وتوجد صفات مشتركة عديدة بين الشّعر والطّفل خاصّة في الصّفة الموسيقية التي تنطلق من الواقع التّنغيمي والإيقاعي في الجرس الموسيقي، وذلك لأنّ الشّعر يقوم على أساس موسيقي، وشعر الأطفال يخلق عندهم الملكة الإبداعية، ويشارك في تنشيءتهم وتربيتهم تربية متكاملة، فهو يزودهم بالحقائق والمفاهيم والمعلومات في مختلف المجالات، كما يمدّهم بالألفاظ والتّراكيب التي تنمّي ثرواتهم اللّغوية وأحاسيسهم، وكذلك التذوّق الفنّي والأدبي عندهم.

ويرى يعض الباحثين أنّ شعر الأطفال بعامة ينقسم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: شعر مكتوب عن الأطفال، وظاهره يخاطب الأطفال، إلاّ أنّه يحمل خصائص أو جماليات الشّعر المكتوب للكبار، سواء من ناحية تركيب الصّورة، أو اللّغة. مثل ما كتبه نزار قباني:

يا أيّها الأطفال،

يا مطر الرّبيع، يا سنابل الآمال

أنتم بذور الخصْب في حياتنا العقيمة

وأنتم الجيل الذي سيهزم الهزيمة

وإنّ النّظر إلى هذا النّوع من الشّعر على أنّه يدخل ضمن الشّعر الموجّه للأطفال هو نظر قاصر.

والنوع الثاني: شعر يحمل خصائص وجماليات الشعر المكتوب للأطفال، كاستخدام الصّورة الشّعرية البسيطة، وسهولة الألفاظ وخفّتها، وتوافر عناصر البناء الموسيقي الدّاخلي والخارجي في قولبة موسيقية مجزوءة البحور، مع رسم صور شعرية جميلة وجذّابة للموضوعات، فضلًا عن التّقليل من أفعال الأمر والإرشاد والنّصح، ولا يعي حقيقة وسمات وأهداف شعر الأطفال بمعناه العلمي كقول الشّاعر جمال الطّاهري (١٩٤٧-١٩٩٩م):

العبْ أيا طفلـــي
في جنّة الحقـل
يا فرحـة الأهــل
في خفّـة الظّــلّ
العبْ معي واسعـدْ
باللِّعْبِ ذا تَشْتَـدُّ
أرجـوكَ لا تَبْعَــدْ
عن مسرح الحقـلِ
اركضْ معي اركضْ
بالطُّولِ أو بالعرْضْ

زَيَّنْتَـهَا ذي الأرضْ
يا وردة الحقــلِ
اركضْ معـي خبَبَا
وازرع هنا طـربَا
سبحـان من وهـبَا
إشراقـة الحقــلِ

أمّا النّوع الثّالث: فهو الشّعر البسيط الذي كتبه الشّعراء الكبار للكبار، وهو في مضمونه وشكله يصلح أن يكون شعرًا للأطفال– دون قصدية أن يكون لهم– حيث لجأ إليه المربّون ومخطّطو المناهج المدرسية قبل أن يتبلور شعر الأطفال على صورته المعاصرة.

شعر الأطفال بين الواقع والرؤى المستقبلية

إن شعر الأطفال هو الشّعر المكرّس لهم، فهو "لون من ألوان الأدب يحقّق السّرور والبهجة والتّسلية والمتعة للأطفال، ويتضمّن الخبرات التّربوية المناسبة، وجوانب الطّبيعة التي تتّفق والميول الأدبية للأطفال، والتي تتّصف بالحركة والنّشاط والحيوية ذات الإيقاع الموسيقي، ويأخذ هذا الشّعر الشّكل القصصي، أو المسرحي، أو الغناء، ولا يشترط فيه أن يكون المؤلّف متخصّصًا للأطفال، بل يشترط فيه أن يكون مناسبًا للأطفال.

وقد أخذ بعض الشعراء على عاتقهم مواصلة المسيرة التي بدأها شوقي، فدعوا مجددًا شعراء العربية لكتابة الشعر للأطفال، ومن هؤلاء الشاعر (أحمد سويلم) الذي حاول أن يرصد ما كتبه الشعراء للأطفال على مر عصور الأدب العربي، فوضع كتابه (أطفالنا في عيون الشعراء).

وكان أحمد شوقي يدرك بأن أدب الأطفال أقوى سبيل يعرف به الصغار الحياة بأبعادها المختلفة، وأنه وسيلة من وسائل التعليم والتسلية؛ لذلك أعطى الأطفال من خلال قصصه الشعرية وأناشيده صورة واضحة لمجتمعهم الذي يعيشون فيه، ولمشكلات حياتهم التي سيواجهونها، وقد استخدم قصص الحيوانات لما فيها من التشويق والمتعة، مع الحكمة والفائدة، وحرص أيضًا على تنمية إحساسهم بجمال الكلمة وقوة تأثيرها مع إيقاع جميل.

وقد طرح الكاتب أحمد فضل شبلول فكرة (أمير شعراء الطفولة) للتأكيد على ضرورة الكتابة للأطفال من خلال مشروع شعري معاصر، يمتد عبر عالمنا العربي، على عكس المشروع الشعري لأحمد شوقي الذي انتهى بعودته من فرنسا، ولم يستكمله بعد أن وجه الدعوة لشعراء العربية أن يكتبوا شعرًا للأطفال. ويتصور أن هذه الحركة سوف تزداد رسوخًا ونموًا لو تبنت جهة عربية ما تنظيم مهرجان شعري كبير للشعر المكتوب للأطفال، وبخاصة شعر الفصحى.

ويرى شبلول إن هيئة ثقافية عربية مثل (هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة)– التي نجحت في تنظيم مهرجان ومسابقة (أمير الشعراء) في شعر

الفصحى، ومهرجان ومسابقة (شاعر المليون) في الشعر النبطي- لهي الجهة المؤهلة لتنظيم مهرجان ومسابقة كبرى في شعر الطفولة، وليكن الاسم المقترح للمهرجان والمسابقة (أمير شعراء الطفولة) على سبيل المثال، تيمنًا بنجاح أمير الشعراء، واستثمارًا في المستقبل.

ويقول: " أتصور أن لا يقتصر أمر المشاركة في هذه المسابقة أو المهرجان على الكبار الذين يكتبون للأطفال، وإنما من الممكن أن يشارك الصغار أيضًا الذين لديهم موهبة الكتابة الشعرية لأنفسهم وذويهم وأقرانهم. وليكن النص الشعري المكتوب للطفل هو المحك في المشاركة، وليس سن المشارك".

أتصور أيضًا أن مثل هذه المسابقة ستخلق حراكًا شعريًا عربيًا غير عادي، وستسهم في إثراء خيال الطفل عن طريق اللغة التي ستزداد ثراءً على لسانه من خلال المفردات والصور الشعرية المناسبة لمدركاته الحسية والوجدانية، ما يجعل مساحة الحب والعاطفة والثقافة تتسع في عالمه الصغير، فينشأ مواطنًا محبًا للحياة واللغة والفنون والخير والسلام.

شعر الأطفال، واليوم العالمي للشعر

ويذكر أن لشعر الأطفال أهمية عالمية، مما حدا بالشاعر والكاتب المسرحي (سوينكا) الفائز بجائزة نوبل إلى إلقائه قصيدة كتبها للأطفال بقاعة الجمعية العامة للأمم المتحدة في أثناء اجتماع رفيع المستوى بمناسبة الذكرى السنوية الثلاثين لاعتماد اتفاقية حقوق الطفل. مما يؤكد على أن للشعر أثرًا

كبيرًا في تعزيز إنسانيتنا المشتركة التي تجعل جميع الأفراد – في كافة أرجاء العالم – يتشاطرون ذات التساؤلات والمشاعر.

كما أثبت أن للشعر الذي يعد حجر الأساس في الحفاظ على الهوية والتقاليد الثقافية الشفهية– على مر العصور– قدرته الفائقة على التواصل الأكثر عمقًا للثقافات المتنوعة.

وتحتفل اليونسكو سنويًا باليوم العالمي للشعر. حيث أُعتُمد في أثناء الدورة الثلاثين لليونسكو– التي عقدت في عام ١٩٩٩ بباريس– مقرر بإعلان ٢١ آذار / مارس من كل عام يومًا عالميًا للشعر.

وختامًا، علينا ألا ننسى أن أدب الأطفال في الأمم الغربية اقتبس من تراثنا العربي عندما كان ناشيءا وليدًا، فقد استعان كثير من مؤلفي قصص الأطفال بما في ألف ليلة وليلة من عناصر شيقة للأطفال، ومن هؤلاء المؤلفين هانز أندرسون(Andersen)، كما أصبحت قصص ألف ليلة وليلة جزءًا من ثقافة الأطفال في أوروبا ردحًا من الزمن بعد ظهور تراجم لها. فقد زودت الليالي أدب الأطفال العالمي بمصادر وحي جديدة، وكان تأثيرها على هذا الأدب شاسعًا، وأصبح السندباد، وعلي بابا، وعلاء الدين، والبساط السحري، والأميرات والأمراء، والحصان الطائر، والخوارق، رموزًا تسبح في فضاء أدب الأطفال العالمي، ولها مكانة خاصة في عالم الأطفال.

المراجع:

١. إسماعيل عبد الفتّاح: أدب الأطفال في العالم المعاصر، القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠.

٢. عبد التواب يوسف: الطفل والشعر، ديوان الشاعر المصري إبراهيم العرب للأطفال، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠.

٣. نجلاء محمد علي أحمد: أدب الأطفال، القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ٢٠١١.

٤. كيمبرلي رينولدز: أدب الأطفال مقدّمة قصيرة جدًّا، ترجمة: ياسر حسن، القاهرة: مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط١. ٢٠١٤.

٥- https://gate.ahram.org.eg/News/٨٣٠٩٤٠.aspx

٦- https://www.albayan.ae/paths/books/٢٠٠٨-١٠-١٢-١,٦٨١٩٩١